الدرس الحادي والأربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه أجمعين. أما بعد:

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب الكبائر :

بابٌ ما جاء في أخوَّة الإسلام وحق المسلم على المسلم

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]**.وقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ الآية** [المائدة: ٥٤] .

****

هذا الباب «**بابٌ ما جاء في أخوَّة الإسلام وحق المسلم على المسلم**» جعله المصنف رحمه الله تعالى خاتمةً لهذا الكتاب المخصص في بيان الكبائر ، ولعل الختم بهذا الباب «باب ما جاء في أخوة الاسلام وحق المسلم على المسلم» لعل ختم هذا الكتاب به له مقصدان:

- الأول: والله تعالى أعلم ؛ أن من حقوق المسلم على أخيه المسلم أن لا يعتدي عليه بأي نوع من الاعتداء، فكلُ المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه ، وقد أورد رحمه الله تعالى نصوصًا في هذا المعنى.
- والمقصد الآخر: أن من مقتضيات هذه الأخوة أن يُعمَل على استصلاح من وقع في شيء من هذه الكبائر ، وقد يستفاد ذلك مما ختم به رحمه الله تعالى أحاديث هذا الباب: ((أنصر أخاك ظالما أو مظلوما)) ، فنصرة المظلوم بتخليصه من وباء الظلم وبلاء الاعتداء ، ومحاولة معالجة ما عنده من خطأ أو ظلم أو ارتكابٍ للكبائر.

وأخوَّة الإسلام هي أعظم أخوة؛ لأنها رابطة وثيقة عظيمة ليس في الروابط إطلاقًا مثلها، وهي رابطة تجمع بين أهل الاسلام في الدنيا والآخرة على محبة لله وطاعته سبحانه وتعالى ونيل رضاه. وهذه الأخوَّة –أخوة الإسلام– لها حقوق، ولهذا صدَّر الباب بالأخوة وحقوق الأخوة، قال: «**وحق المسلم على المسلم**» أي : الحقوق التي تقتضيها أخوَّة الإسلام، وسيأتي جملة منها في هذه الترجمة.

وبدأ رحمه الله بقول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[الحجرات: ١٠] ؛ وهذا عقد عظيم عقده الله سبحانه وتعالى بين المؤمنين، بين أهل الإيمان، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ عقْدٌ بينهم بأن المؤمن أينما وجد وفي أي مكان حلّ فهو أخٌ لك تجمعك به أخوة الدين ويربطك به رابطة الإسلام. وهذه الأخوة والرابطة لها حقوقها ومقتضياتها كما قال جلّ وعلا في الآية الكريمة: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ وهذا واحد من هذه الحقوق ، ثم بعد ذلك أُتبعت هذه الآية بآيات فيها ذكر لمقتضيات هذه الأخوَّة، كقوله في الآية التي تليها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ إلى تمامها، وقوله في الآية التي تليها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ إلى تمامها ؛ هذه كلها مقتضيات لهذه الأخوة العظيمة والرابطة الوثيقة.

وأورد قول الله عزّ وجلّ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[المائدة: ٥٤] ؛ وهذا فيه أيضًا بيان لما تقتضيه هذه الأخوَّة بين أهل الإيمان؛ أن بعضهم مع بعض أذلة، أي: يتعامل بعضهم مع بعض بالمحبة والرحمة والإيثار والتعاون على البرّ والتقوى.

﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: المعادين لدين الله تبارك وتعالى، المبغضين لشرع الله عزّ وجل فإنهم أعزة على من كان كذلك ، بخلاف المؤمن فإنهم أذلة على المؤمنين فيهم الرحمة والشفقة والتوادّ والتعاطف، كما سيأتي في الأحاديث التي ساقها المصنف رحمه الله تعالى.

قال رحمه الله تعالى :

٢٥٢ – وفي الصحيح: ((لو كنتُ متخذًا من أمتي خليلاً لاتخذتُ أبا بكر خليلاً، ولكن أخوَّة الإسلام أفضل)).

****

قال: وفي الصحيح ((**لو كنتُ متخذًا من أمتي خليلاً لاتخذتُ أبا بكر خليلاً، ولكن أخوَّة الإسلام أفضل**)) والشاهد من هذا الحديث للترجمة: قوله عليه الصلاة والسلام: ((ولكن أخوة الإسلام أفضل)) . ومعنى «أخوة الإسلام أفضل»: أي الاكتفاء بأخوة الإسلام أفضل من اتخاذ خليل غير الله سبحانه وتعالى.

قال: ((**ولكن أخوة الإسلام أفضل**)) وهذا فيه عظم شأن هذه الأخوة وعظم مكانتها وأيضًا عظم فضلها.

وقوله: ((**لو كنتُ متخذًا من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً**)) فيه شرف أبي بكر رضي الله عنه وعظيم مكانته، وهذه فضيلة خُصّ بها من بين سائر الأمة ومن بين سائر أصحاب النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله ((**لو كنتُ متخذًا من أمتي خليلاً**)) لا يعارضه ما يأتي في بعض الأحاديث حيث يقول بعض الصحابة: «أوصاني خليلي»؛ لأن الممتنِع أن يتخذ هو عليه الصلاة والسلام من أمته خليلاً ، أما أن يُتخذ هو صلوات الله وسلامه عليه خليلاً فهذا جاء في عدد من الأحاديث، مثل قول أبي هريرة رضي الله عنه وغيره من الصحابة: «أوصاني خليلي رسول الله صلى الله عليه وسلم» بكذا.

قال رحمه الله تعالى :

٢٥٣ – وعن أبي موسى رضي الله عنه مرفوعًا: ((المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا)).

****

وهذا الحديث حديث أبي موسى رضي الله عنه مرفوعًا: ((**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا**)) صريحٌ في تعظيم حقوق المسلمين بعضهم مع بعض، وأن مَثَلهم مثَل البنيان يشدُ بعضه بعضًا، وكون البنيان يشدُّ بعضه بعضًا هذا أمر ظاهرٌ للناس، والنبي عليه الصلاة والسلام جعلَ البنيان الذي يشدُ بعضه بعضًا مثلاً للمؤمن مع أخيه المؤمن، ((يشدُّ بعضه بعضًا))، وهكذا ينبغي أن تكون العلاقة بين المؤمنين مبنية على التآزر والتعاون والتآخي والتعاضد والتكافل والتراحم، إلى غير ذلك من معاني الأخوة الإيمانية ومقتضياتها.

قال رحمه الله تعالى :

٢٥٤ – ولهما عن النعمان بن بشير رضي الله عنه مرفوعًا: ((مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)).

****

وهذا فيه الحث والتحريض على التعاون والتآخي والتحاب، وأن مثَل المؤمنين في هذا التوادّ والتراحم والتعاطف مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى؛ لأن الجسد الواحد إذا اشتكى بعضه، إذا اشتكى منه الإصبع أو القدم أو طرف من الأطراف تألم الجسد كاملاً ، وأحسّ الجسد بالألم كاملاً، وهذا مثل للمؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم ؛ فآمالهم واحده، وأفراحهم واحدة، وآلامهم واحدة، وهموهم مشتركة، وهذا هو الذي تقتضيه هذه الأخوَّة والرابطة التي جعلها الله سبحانه وتعالى بينهم.

قال رحمه الله تعالى :

٢٥٥ – وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: ((لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تناجشوا ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره. التقوى هاهنا – وأشار إلى صدره ثلاث مرات – بحسْب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه)) رواه مسلم.

****

قال: وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ((**لا تحاسدوا**)) أي: لا يقع في قلوبكم كراهية للنعم التي يمنُّ الله سبحانه وتعالى بها على العباد ، ولا يقع في قلوبكم تمنّي لزوال تلك النعم، ولا أيضًا تعملوا على إزالة هذه النعم، وهذه درجات التحاسد الثلاثة: بدءً بكراهية النعمة، ثم أشد منه التمني للزوال، ثم أشد منه العمل على زوال النعمة عن الغير. والحاسد عدو نعمة الله سبحانه وتعالى ، وأول ما يبدأ حسده بالكراهية للنعمة التي يمنُّ الله سبحانه وتعالى بها على عبده.

وقوله ((**ولا تباغضوا**)) أي: لا تفعلوا ما يترتب عليه وجود التباغض بينكم، ولهذا قال بعض العماء في شرح هذا الحديث: فيه نهي عن البدعة؛ لأن وجودها يوجد البِغْضة بين المسلمين ، فقوله ((لا تباغضوا)) أي : تجنبوا وابتعدوا عن كل أمرٍ يفضي بكم إلى التباغض.

((**ولا تناجشوا**)) والنجش هو: أن يزيد في السلعة للإضرار بأخيه لا لرغبةٍ في شرائها، أو يزيد في السلعة لينفّع أحد أصدقائه لاعن رغبة في شرائها.

((**ولا تدابروا**)) أي: لا يولي كلٌّ منكم أخاه دبُرَه معرضًا عنه.

((**ولا يبع بعضكم على بيع بعض**)) وهذا أيضًا من حقوق الأخوة الإيمانية، أن لا يبيع المسلم على بيع أخيه، وأيضًا لا يخطب على خطبة أخيه، فإذا سبقه إلى بيع أو إلى شراء أو إلى خطبة فهو أحق بذلك، وليس له أن يبيع على بيعه.

((**وكونوا عباد الله إخوانًا**)) أي: اعملوا على تحقيق هذه الأخوة وتمتينها وتقويتها.

((**المسلم أخو المسلم**)) أي يجمعه به أخوة الإسلام وأخوة الدين، كما تقدم في الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ .

((**لا يظلمه**)) أي: لا يقع منه ظلمٌ لأخيه المسلم بالاعتداء عليه؛ لا في نفسه، ولا في عرضه، ولا في ماله.

((**ولا يخذله**)) من الخذلان؛ وهو عدم النصرة عند احتياجه إلى ذلك.

((**ولا يحقره**)) أي لا يعامله بالانتقاص والاحتقار والازدراء .

((**التقوى هاهنا وأشار إلى صدره ثلاث مرات**)) وهذه الإشارة المتكررة ثلاث مرات فيها تأكيد إلى أن منبع التقوى وأصلها هو القلب.

((**بحسب امرئٍ من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم**)) أي يكفي المسلم شرًا أن يكون متصفًا بهذه الصفة؛ أن يحقر أخاه المسلم.

وتنبه هنا إلى لطيفة: قوله ((ولا يحقره)) ثم قوله ((بحسب امرئٍ من الشرّ أن يحقر أخاه)) ؛ وسّط بينهما ((التقوى هاهنا)) ، لم يقل "ولا يحقره بحسب امرئٍ من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم"، وإنما وسّط بين النهي عن احتقار المسلم وبين بيان عظم شرّ من احتقر أخاه المسلم ، وسّط بين هاتين الكلمتين بقوله: ((التقوى هاهنا)) مشيرًا إلى صدره، ومكررًا الإشارة ثلاث مرات . وهذا فيه التنبيه إلى أنّ العبرة إنما هي بما يقوم بالقلب ، وقد يحقر أخاه المسلم ويكون هذا الذي يحقره أتقى لله منه، وأعلى منزلة عند الله منه، وله المكانة العلية عند ربّ العالمين ويحقره.

فليحذر المسلم من أن يحقر أخاه المسلم، قد تحقر شخصًا وتنتقصه وهو خير عند الله منك، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فقد تحتقره وهو خير منك وأفضل منك وأعلى مكانة منك عند الله سبحانه وتعالى، فلا تغتر بما ميزك الله عليه مثلاً بمال، وما ميزك عليه مثلاً بصحة أو بعافية أو بجاه أو بمكانة، لا تغتر بذلك كله، قد يكون هذا الذي تحتقره خير من مئات مثلك أو آلاف مثلك. فـ ((بحسب امرئٍ من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم)) كيف يحقر أخاه المسلم والتقوى هاهنا مشيرًا إلى صدره ثلاث مرات؟! هل اطلعتَ على قلبه ورأيت قلبه حتى يقع منك هذا الاحتقار له؟ قد يكون قلبه أعمر إيمانًا وأكثر تقوى وأكثر طاعة لله سبحانه وتعالى وأعظم تقرب وأعظم خوف وأعظم خشية من الله عزّ وجلّ ثم تحقره!! . فقوله عليه الصلاة والسلام: ((التقوى هاهنا)) موسطًا لها بين قوله: ((لا يحقره)) وبين قوله: ((بحسب امرئٍ من الشر)) فيه تنبيهٌ لهذا المعنى، وأن العبرة إنما هي بما يقوم في القلوب؛ إذ هي الأساس الذي يُبنى عليه العمل ويقوم عليه الدين.

قال: ((**كلّ المسلم على المسلم حرام؛ دمه وماله وعرضه**)) وهذا نظيره قوله صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع: ((إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم ؛كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا)).

قال رحمه الله تعالى :

٢٥٦ – ولهما عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا: ((المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرّج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة)).

****

قال: ولهما عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ((**المسلم أخو المسلم**)) أي: يجمعه به أخوة الإسلام. ثم ذكر مقتضيات هذه الأخوة ، قال:

((**لا يظلمه**)) أي لا يقع منه ظلم على أخيه المسلم.

((**ولا يسلِمه**)) أي لا يلقيه إلى الهلكة ويخلّي بينه وبين الهلكة، بل يحرص على تجنيبه وإبعاده عن الهلاك وأسباب الهلاك.

((**ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته**)) أي: من عمل على قضاء حاجة أخيه واهتم لحاجة أخيه كان الله في حاجته.

((**ومن فرّج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة**))؛ وهذا فيه أن الجزاء من جنس العمل، من عمل على تفريج كربات إخوانه وتنفيس شدائدهم جازاه الله سبحانه وتعالى من جنس عمله، ففرّج عنه كربةً أي شدة من شدائد يوم القيامة.

((**ومن ستر مسلمًا**)) أي في معصية ارتكبها واطَّلع عليها هذا الإنسان وستره وعمل على مناصحته والأخذ بيده بالبعد عن هذه المعاصي، ولم يعمل على فضحه بين الناس، وعمل على معالجة هذا الخطأ الذي لاحظه عليه ؛ ستره الله سبحانه وتعالى يوم القيامة . وهذا أيضًا فيه أن الجزاء من جنس العمل.

قال رحمه الله تعالى :

٢٥٧– ولهما عن أنس رضي الله عنه مرفوعًا: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه)) .

****

قال: ولهما عن أنس رضي الله عنه مرفوعًا: ((**لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه**)) وهذا الحديث أصل جامع في باب الأخوة الإيمانية ، وإليه ترجع جميع المعاني المطلوبة من حقوق الأخوة الإيمانية ومقتضياتها.

يقول عليه الصلاة والسلام: ((**لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه**)) أي لا يكون حقّقَ الإيمان الواجب الذي يسْلم به من عقوبة الله إلا إذا أحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه ، ومعنى ذلك: أن يكون القلب تجاه إخوانك المسلمين نقيًا صافيًا سليمًا ليس فيه غل ولا حقد ولا حسد ولا ضغائن ، وإنما فيه محبة الخير لهم مثل ما

تحب لنفسك . وإذا كان القلب كذلك تصلح الجوارح تبعًا له، وتصلح التعاملات مع إخوانه المسلمين تبعًا لصلاح قلبه، ولهذا تجد بعض الناس عندما يرون تعامل شخص معهم باللطف واللين والمعاملة الكريمة يقولون : فلان طيب قلبه، هكذا نحسبه والله حسيبه ، لأن طيب القلب وصلاحه بمحبة الخير لإخوانه المسلمين هو الذي يولّد هذه الأعمال الصالحة وتنبعث منه هذه الأعمال الصالحة، كما قال عليه الصلاة والسلام: ((ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب)).

وهذا الحديث من الأحاديث التي ترجع إليها أحاديث الأخلاق ، وهو من الأحاديث الجامعة في هذا الباب، وهو من جوامع الكلم في باب الأخلاق والتعامل بين المؤمنين.

قال رحمه الله تعالى :

٢٥٨ – وللبخاري عنه رضي الله عنه مرفوعًا: ((انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا))، فقال رجل: «يا رسول الله إن كان ظالمًا كيف أنصره؟» قال: ((تحجزه وتمنعه من الظلم ؛ فذلك نصرك إياه)) . والله تعالى أعلم.

****

قال: وللبخاري عنه –أي أنس – مرفوعًا إلى النبي عليه الصلاة والسلام ((**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**)) ؛ والنصر: الإعانة، انصره: أي أعنه، ولهذا جاء في بعض الروايات لهذا الحديث: ((أعِن أخاك ظالمًا أو مظلومًا)) ، فالنصر هو الإعانة. والبخاري رحمه الله تعالى في كتابه الصحيح عندما أورد هذا الحديث بوّب له «بابٌ أعن أخاك ظالما أو مظلومًا» ثم أورد هذا الحديث مشيرًا إلى أن النصر هو الإعانة، وأنه جاء في بعض روايات الحديث ذلك: ((أعن أخاك ظالما أو مظلومًا)) .

وإعانته مظلومًا هذا أمر واضح، ولهذا قال الصحابة رضي الله عنهم: «يا رسول الله إن كان ظالما كيف ننصره؟» بمعنى أن نصره مظلومًا هذا أمر واضح ظاهر ، لكن كيف ننصره وهو ظالم؟ كيف نعينه وهو ظالم؟ فبيَّن ذلك عليه الصلاة والسلام: ((**تحجزه وتمنعه عن الظلم فذلك نصرك إياه**)) .

ولعل –والله تعالى أعلم– خَتْمُ المصنف رحمه الله تعالى بهذا الحديث فيه لفتٌ إلى معنى لطيف جدًا يتعلق بفائدة وثمرة من دراسة هذا الكتاب «كتاب الكبائر» ؛ وكأنه يقول: يامن أكرمك الله وعرفتَ هذا الكتاب وعرفت هذه الكبائر ووقفتَ على هذه الأدلة انصر أخاك ، أعِنه، أعن أخاك الظالم الذي وقع في الظلم وقع في هذه الكبائر، أعِنه بحجزه عنها ومنعه منها ؛ وحجزك له عنها بأن تدله على هذا العلم ، لأن أكبر رادع وحاجز للإنسان عن الظلم والوقوع في الكبائر أن يقف على النصوص وأن يقف على الأدلة ، وها أنت وقفت عليها وعرفتها وفهمتها فدلَّ غيرك إليها ، هذا الخير الذي هداك الله عزّ وجلّ إليه ووفقك لتعلُّمه والعمل به بعون من الله سبحانه وتعالى ومدّ أوصله للآخرين ودلَّ الآخرين عليه .

ولهذا الناس في هذا الزمان بحاجة شديدة جدًا الى أن يقرؤوا مثل هذه الكتب؛ هذا الكتاب، وكتاب «الكبائر» للإمام للذهبي رحمه الله تعالى؛ لأن أهل الشرّ تسلطوا على أهل الإسلام بنشر الأمور والوسائل والأسباب التي تهيّج للشرّ وتحركه في قلوب الناس، وفي الوقت نفسه قلّت القراءة عند الناس والاطلاع على مثل هذه المعاني العظيمة، والتوجيهات المباركة والأحاديث النافعة في التحذير من الكبائر وبيان خطورتها. ولهذا قراءة مثل هذا الكتاب أو كتاب «الكبائر» للإمام الذهبي رحمه الله تعالى، والحث على نشره ، ونشره بين الناس في البيوت وبين الشباب هذا من الأمور التي حقيقة يُحتاج إليها حاجه ماسّة في زماننا هذا.

وختم المصنّف رحمه الله تعالى كتابه «الكبائر» بقوله: «**والله تعالى أعلم، تمتْ بحمد الله ومنَّته، وصلى الله على سيدنا محمدٍ، وسلّم تسليمًا كثيرًا**».

ونسأل الله عزّ وجلّ أن يجزي هذا الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى خير الجزاء، وأن يجزي جميع علماء المسلمين ، وأن ينفعنا أجمعين بما علّمنا، وأن يزيدنا علمًا، وأن يصلح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأن يغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

وصلى الله وسلِّم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.